الحرب

قصة للكاتب الإيطالي بيراندللو

كان على المسافرين الذين غادروا « روما » بقطار اكسبريس المساء ، ان يتوقفوا حتى الفجر في المحطة الصغيرة « فابيانو » حتى يستأنفوا رحلتهم بالقطار المحلي الصغير القديم الطراز الذي يربط الخط الرئيسي بـ « سلمونا » . وعند الفجر ، وفي عربة معتمة من عربات الدرجة الثانية كان خمسة اشخاص قد قضوا فيها مساءهم ، صعدت امرأة بدينة متشحة في ملابس الحداد السوداء ، يتبعها رجل كان ينفخ ويئن تبين انه زوجها ، وهو رجل نحيف ضعيف شاحب الوجه صغير العينين لامعهما بادي الخجل والاضطراب .

واخيرا بعد ان اتخذ له مقعدا اتجه للمسافرين الذين ساعدوا زوجته وجعلوا لها مكانا وشكرهم بأدب . ثم التفت للمرأة محاولا ان يجذب ياقة سترتها الى اسفل ، وقال بلطف :

ـ هل انت بخير يا عزيزتي ؟

وبدلا من ان تجيبه رفعت الزوجة الياقة الى عينيها مرة اخرى حتى لتخفي وجهها .

ـ « دنيا كئيبة » ، تمتم الرجل بابتسامة حزينة .

وشعر ان من واجبه أن يوضح لرفاقه المسافرين ان تؤخذ هذه المرأة بشفقة اذ ان الحرب كانت في سبيل انتشال وحيدها منها،وهو فتى في العشرين ومن اجله كرس كلاهما كل حياتهما حتى هجرا بيتهما في « سلمونا » ليتبعا « روما » ، حيث كان عليه ان يذهب ليدرس ، ثم سمحا له ان يتطوع للحرب بضمان ـ الى حد ما ـ انه لن يرسل الى ارض المعركة لمدة اشهر ستة على الاقل ، والان وعلى حين فجأة تسلما برقية تقول انه وشيك الرحيل في خلال ايام ثلاثة وعليهما ان يذهبا لرؤيته .

كانت المرأة تتلوى وتتلفت تحت سترتها الضخمة ، واحيانا تزمجر كوحش ضار ، وهي تشعر بكل تأكيد ان كل هذه التلميحات لن تحرك ساكنا ، حتى ولا ظلا من الشفقة في هؤلاء الناس الذين ـ يبدو غالبا ـ انهم كانوا في مثل حالتها . وقال احدهم وكان ينصت بانتباه معين:

ـ انه لينبغي عليك ان تشكري الله ان ولدك يغادر الان للقتال والان فقط ، بينما ولدي قد ارسل الى هناك اول ايام الحرب وعاد مجروحا مرتين حتى الان ثم ارسل للقتال مرة اخرى .

وقال مسافر اخر : وما بالي أنا ؟ لي ولدان واولاد اخي الثلاثة في جبهة القتال .

وتدخل الزوج قائلا : ربما ، غير ان الكارثة في حالتنا نحن انه الابن الوحيد .

ـ وما الفرق بين هذه وتلك ؟ ربما أنت تدلل ابنك الوحيد زيادة عن اللازم ، غير انه اذا كان لك ابناء اخرون فانك لن تستطيع انتهبه من حبك قدرا اكبر منهم . فالحب الابوي ليس كالخبز الذي يمكن ان يقطع الى قطع ويقسم بين الاطفال اجزاء متساوية . الاب يمنح كل حبه لكل من اولاده ، دون تفرقة ان يكونوا واحدا او عشرة ، وانكنت اقاسي اليوم من اجل ولدي ، فانني لست اقاسي النصف لكل منهما بل انني اقاسي الامرين ...

وتنهد الزوج المضطرب قائلا : حقا ... حقا ، غير انه ـ لا قدر الله ـ هب ان ابا له ولدان في جبهة القتال وفقد احدهما ، فهناك لا يزال واحد على قيد الحياة يجد فيه العزاء .. بينما ...

ـ « بلى » اجاب الاخر مقاطعا : ولد على قيد الحياة يجد فيه العزاء ، غير انه ولد من اجله يتحتم عليه البقاء ، بينما لو يموت وحيد ابيه ، فان اباه يستطيع ان يموت ايضا ويضع حدا لحزنه . اي الحالتين اسوأ اذن ؟ الا ترى ان حالتي هذه ستكون اشد وقعا من حالتك ؟

وتدخل في الحديث مسافر اخر وهو رجل بدين احمر الوجه ذو عينين محمرتين في حمرة الدماء ـ تدخل قائلا وهو يحاول ان يغطي فمه براحته حتى ليخفي اثنتين مفقودتين من اسنانه : هراء .. كلام فارغ .. انحن نهب الحياة لاولادنا لمصلحتنا نحن ؟

حملق فيه المسافرون الاخرون في قلق وتنهد الرجل الذي ذهب وحيده الى القتال منذ اول ايام الحرب : انك على حق . ان ابناءنا لا ينتمون الينا ، بل انه الوطن الذي ينتمون اليه .

قال المسافر البدين : وهل نفكر في الوطن حينما نهب الحياة لاطفالنا ؟ ان ابناءنا يولدون لانهم ... حسن ، لانه لا بد ان يولدوا ، وعندما يرون نور الحياة يسلبوننا حياتنا معهم . انها الحقيقة . اننا نحن الذين ننتمي اليهم ، بيد انهم لا ينتمون الينا ابدا . وعندما يبلغون سن العشرين فانهم تماما كما كنا نحن في عمرهم . نحن ايضا لنا آباء وامهات ، بيد انه كانت هناك امور اخرى عديدة لا حصر لها.. الفتيات ، لفافات التبغ (السجائر) ، المظاهر ، اربطة عنق جديدة.. والوطن ، بالطبع ، الذي اذا ما دعانا كان من الواجب علينا عندما كنا في العشرين ـ ان نلبي نداءه حتى لو ابى الاباء والامهات . ان حب الوطن في عصرنا الان ما زال عظيما بالطبع ، غير انه اعظم من حبنا للابناء . ايوجد بيننا الان من لا يرغب بكل ارتياح ان يتخذ مكان ابنه في جبهة القتال ان كان هذا في مقدوره ؟

وساد المكان صمت عميق والكل يومىء برأسه علامة الموافقة .

واستأنف الرجل البدين حديثه قائلا : لم اذن لا نقدر مشاعر ابنائنا وقد بلغوا العشرين من اعمارهم ؟ اليس امرا طبيعيا ان من واجبهم في مثل اعمارهم ان يعتبروا حب الوطن اعظم من حبهم لنا نحن ؟ وبالطبع انا اتحدث عن الابناء الصالحين . كما لا بد انهم ينظرون الينا نظرتهم الى شيوخ مسنين لا يستطيعون حراكا وعليهم المكوث في البيت . لو ان الوطن ضرورة طبيعية كالخبز يتحتم على كل منا ان يأخذ نصيبه منه حتى لا يتضور جوعا ، لتحتم على كل منا ان يدافع عنه . وعندما يبلغ ابناؤنا العشرين فانهم يذهبون وليسوا في حاجة الى دموع ، لانهم اذا سلموا الروح ، فانهم يسلمونها سعداء

في قليل من الاضطراب . والان لو ان انسانا يموت صغيرا راضيا تاركا وراءه الحقير من مجالات الحياة ، الكئيب منها ، مخلفا وراءه تفاهة المظاهر وقسوتها ... ما الذي في مقدورنا ان نتطلبه له اكثر من ذلك ؟ لينبغي على كل امرىء ان يوقف نحيبه ، وان يضحك كما افعل انا ... او على الاقل يشكر الله مثلي ـ لان ولدي قبل مماته ، ارسل لي رسالة يقول فيها انه كان يموت راضيا قانعا انه اختتم حياته باحسن سبيل كان يتمناه ، لذا كما ترون حتى ملابس الحداد لا ارتديها ...

وهز سترته الرمادية الخفيفة حتى يظهرها ، وكانت شفته الشاحبة التي تعلو المفقودتين من اسنانه ترتجف ، وعيناه تدمعان ولا تبديان حراكا ، وفي الحال اختتم حديثه بضحكة حادة عالية ربما كانت منه تنهدة آسفة .

وكانت المرأة ـ التي تكومت في احد الاركان تحت سترتها ـ تنصت محاولة ان تجد في كلمات زوجها واصدقائها لثلاثة اشهر خلت شيئا تجد فيه عزاء لها في حزنها العميق ، شيئا ربما يعرض لها كيف انه ينبغي على الام ان ترضخ وترسل ابنها لا للموت فحسب بل لحياة محتملة الخطورة . بيد انها لم تجد بعد كلمة بين تلك التي قيلت... وتضاعف اسفها عندما تراءى لظنونها ـ انه ليس ثمة من يستطيع ان يقاسمها مشاعرها .

غير ان كلمات المسافر اعجبتها واثارت دهشتها . وفجأة وعلى غير ميعاد ادركت ان الاخرين ليسوا هم الذين كانوا مخطئين وما استطاعوا ان يفهموها ، بل انها هي التي ما كان في مقدورها ان تسمو الى نفس المستوى الذي سما اليه هؤلاء الآباء والامهات الراغبون والراغبات في الرضوخ ، دون ما نحيب او بكاء لا لفراق ابنائهم ورحيلهم فحسب بل حتى لمماتهم .

وانتصبت برأسها محاولة ان تنصت بانتباه شديد للتفاصيل التي يعرضها الرجل البدين سعيدا وبلا ندم لرفاقه عن الطريقة التي استشهد بها ولده كبطل من اجل مليكه ووطنه . وبدا لها انها قد تغلغلت خلال عالم لم تحلم به بعد ، عالم ابعد ما يكون عن مخيلتها ، وكانت جد مسرورة ان تسمع كل فرد يشارك في تهنئة هذا الوالد الشجاع الذي استطاع بكل هدوء ان يتحدث عن موت ابنه .

وعلى حين غفلة ، التفتت الى الرجل العجوز وسألته كما لو كانت لم تسمع شيئا من الذي قد قيل ، او بالاحرى ، كما لو كانت تستيقظ من حلم :

ـ اذن .. هل مات ولدك حقا ؟

وحدق كل فيها ببصره . والتفت العجوز ايضا لينظر اليها ، مثبتا عينيه الواسعتين ، المنتفختين ، المخيفتين ، الرماديتين ، الدامعتين على وجهها بعمق . وحاول للحظات قصيرة ان يجيبها ، غير ان الكلمات خانته . فنظر اليها وحدق فيها ببصره ـ اغلب الظن كما لو كان الى هذا السؤال الساذج الذي ليس في محله ـ وفجأة ادرك اخيرا ان ولده حقيقة قد مات .. ذهب الى الابد ـ ولن يعود. وانكمش وجهه ، واصبح متغيرا مخيفا . وفي لمحات خاطفة جذب من جيبه منديلا ولشد ما ادهش الحاضرين ، اخذ في بكاء مرير طويل ، ممزق للقلوب وتنهدات عجز عن مغالبتها .

ترجمة احمد ساهر

دار الآداب تقدم

قصة المقاومة الفيتنامية

كما يرويها ابطالها

يعتبر نضال الشعب الفيتنامي لتحرير ارضه من اطول ما عرف التاريخ الحديث من مقاومة وصمود.
وهذا الكتاب الهام الذي نقدمه للقراء العرب ، في هذه الفترة التي تحتشد فيها الطاقات العربية كلها لمقاومة العدوان الصهيوني وتحرير الارض العربية في فلسطين ، يحمل مثالا وعبرة وفائدة عظيمة ، لا سيما وان مؤلفيه هم انفسهم من ابطال المقاومة الفيتنامية على رأسهم الجنرال فو نيغوين جياب قائد المقاومة الفيتنامية سابقا ووزير الدفاع في فيتنام حاليا . والمؤلفون يروون باسلوب شيق طريف ذكريات اعمالهم السياسية والحربية في سايغون وهانوي واعوام الاسر والسجن والتعذيب ، والاحتلال الياباني وقيام حروب العصابات في حقول الارز والغابات الكثيفة ، حتى تعبئة الشعب كله في ربيع عام ١٩٤٥ وانشاء جمهورية فيتنام الديمقراطية في هانوي .
وخلال هذه القصة يبرز وجه مدهش عجيب : هو وجه ذلك المناضل الشاب ، والمثقف الانساني ، والثائر الذي لا يلين : « العم هو » الذي سيصبح فيما بعد الرئيس هو شي منه ...
والفصل الاخير في الكتاب يتحدث عن المقاومة البطولية الرائعة التي ما يزال شعب الفيتنام يخوضها بقيادة جبهة التحرير الوطنية حتى ايامنا هذه ضد الاحتلال الاميركي وعملائه في فيتنام الجنوبية .

الثمن ٣٠٠ ق.ل

صدر حديثا